# نصف الكأس الفارغة: مهنة الاستشراق *

سوزان مارشاند

لإدراك ماهية المستشــرق الألماني منتصف القرن التاسع عشــر، أو إدراك ماذا يعني أن تكون مستشــرقاً في ألمانيا في تلك الفترة، علينا أن نُعَوِّد أنفسنا على التآلف مع عالم أكاديمي يختلف تمام الاختلاف عن عالمنا الأكاديمي اليوم، بل يختلف كثيراً حتى عن العالم الأكاديمي في ألمانيا ذاتها في نهاية القرن التاسع عشر. وهنا نلجأ مرةً أخرى إلى **اللورد أكتون** الذي رسم صورة معبّرة عن هذا العالم فقال:

**في تلــك الأيــام كان النمط المألــوف للعالــم الألماني يُستخلص من ذلك الرجل الذي يشتكي من أن المكتبة لا تمنحه سوى ثلاث عشرة ساعة للقراءة في اليوم، من ذلك الرجل الذي يقضي ثلاثين سنة في قراءة مجلدٍ واحدٍ، وذلك الرجل الذي بدأ يكتب عن هوميروس ســنة 1806، ولا يزال يكتب عن هوميروس ســنة 1870... بدايةً فهو دارس للإغريق مرتبط بآفاق قديمة...**

* ترجمة رضوان السيد للفصل الثاني من كتاب سوزان مارشاند: الاستشراق الألماني في زمن الإمبراطورية (2009)، ص 72 ـ 86.

سوزان مارشاند، أستاذة أميركية من أصل ألماني، مختصة بالثقافات المقارنة.

**فهو يدير ظهره بقوة وصرامة لهذا العالم المعاصر، بما يحمله هذا العالم من أسئلة عالقة لم تتم تسويتها ومن معلومات يستعصي الوصول إليها. رجل يعشق الإقامة في فضاء يأمل أن يكدُّ فيه ويهبه حياته. فقد كان على غرار هيغل الذي أنهى كتابه في سعة وراحة [بجامعة] يينا خلال المعركة، ثم ذهب في الصباح يبحث عن ناشر فتفاجأ بالشوارع المليئة بالجنود الفرنسيين. فلم يترك لأصوات العالم المتألمة مجالاً لتشغله وتلهيه. رجل غالباً ما كان ينهض بقوى ضعيفة، وينطلق من فقر مدقع، يسير حافي القدمين إلى المدرسة يتوسّل طريقه عبر أراضي الأسلاف على نحو ما كان يفعل الأستاذ هازه [كارل هازه أستاذ الفيلولوجيا بجامعة يينا]، ثم يقضي حياته متقشفاً مقتصداً في معاشه[1].**

إنه وإن كان هذا الوصف يعطي صورة عامة عن العلماء الألمان؛ فإن هذه الصورة تُعدّ ـ في نظرنا ـ مناسبة للمستشرقين المقصودين في هذا الفصل؛ لذا استحقت الصدارة والبدء بها. ففي الفقرات التالية سنلتقي بعدد كبير من الدارسين والعلماء، ممن ألغوا ذواتهم وعملوا بجد ودون كلل، علماء ارتبطوا بآفاقٍ قديمةٍ واستنكفوا عن الدخول في النزاعات الدينية مسلحين بمعارفهم الفيلولوجية. إنهم علماء ودارسون عاملهم اللورد **أكتون** معاملة الأبطال؛ لأن هؤلاء المستشرقين الغاضبين ـ الذين سنتحدّث عنهم في هذا الفصل ـ كانوا بالفعل كذلك. وبَدَهيّ أن هدف مهمتنا هنا ليس الإشادة بهؤلاء أو تحقيرهم؛ بل هدفنا هو إدراك السبب الذي حداهم إلى الاشتغال على النحو الذي اشتغلوا به، والسبب الذي دعاهم إلى اعتقاد ما اعتقدوا فيه. ثم نعرض في الأخير للعواقب الناجمة عن هذا الصنف من الاستشراق الذي أنتجه هؤلاء.

دعونا نستهل بتقييم عام لهذا الصنف من الأفراد الذين اختاروا الاستشراق مهنة. ونرى مهماً هنا أن نستحضر أنّ المرء الراغب في أن يصبح مستشرقاً ـ على النحو الذي حددنا به مصطلح الاستشراق ـ، كان

---

1 ـ Acton, German Schools of History, p.26.

عليه القيام باختيار شخصي واستثمار قدر كبير من الوقت والمال، إضافة إلى استعداد لتحمل صنف معين من الأخطار. فلكي يصبح الدارس مستشرقاً ألمانياً يجب أن تتوافر فيه مزايا مؤثرة وتكوينات معرفية خاصة، وهذا بعد أن يكون قد اجتاز مرحلة التعليم الذاتي، وتكَوَّن في معارف الاستشراق الفرعية التي تخرج عن دائرة التكوين العام. وقد استقطب هذا المجال عدداً مهمّاً من أبناء الكهّان والقساوسة، أكثر مما استقطبت الدراسات الكلاسيكية. ولعل السبب الأرجح لهذا الاستقطاب هو بُعد الاستشراق النسبي عن المؤسسات الثقافية، وقربه من الاهتمامات والمنظمات الدينية. كما استقطب مجال الاستشراق عدداً مهماً من المتنصرين اليهود. وحتى وإن كان هذا المجال قد جذب أيضاً عدداً من أبناء البيروقراطيين ومعلمي المدارس الثانوية، فإن عدداً مهماً من المستشرقين كانوا يتحدرون من طبقة الملاك المتوسطة (Besitzbürgertum)، وهو أمر نادر الحدوث في أوساط الكلاسيكيين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن حضور المنتمين للطبقة الأرستقراطية في هذا المجال كان أقوى من حضورهم في الدراسات الكلاسيكية؛ وذلك لأسباب وجيهة. فالعمل في الهيئات الدبلوماسية ظل في مجمله مقصوراً على النبلاء، في حين كان الدبلوماسيون المعيَّنون في الشرق يستغلون أوقاتهم في قراءة الدراسات الاستشراقية بغاية تثقيف أنفسهم. مع الإشارة إلى أن الكتب كانت غالية الثمن، والسفر إلى مقرات المكتبات الكبرى في باريس وليدن ولندن كان باهظ الكلفة. وإذا كان غير الأوروبيين يحتلون أهمية خاصة في هذا المجال ـ بكونهم معلمين للغات ومرشدين ووسطاء ومزودين بالمواد ـ فإنهم لم يظهروا إلا نادراً في المنشورات والمطبوعات (بل لم تذكر أسماؤهم!). فقبل سنة 1854 كان هناك عدد قليل جداً من الرحّالة الألمان الإناث اللواتي ألَّفنَ كتباً موجهة

**نلتقي في الدراسة بعدد كبير من الدارسين والعلماء، ممن ألغوا ذواتهم وعملوا بجد ودون كلل، علماء ارتبطوا بآفاقٍ قديمةٍ واستنكفوا عن الدخول في النزاعات الدينية مسلحين بمعارفهم الفيلولوجية.**

للجمهور الواسع (**لعل** أكثرهنّ ذكراً وشهرة **إيدا بفايفر**[1] و**إيدا هان ـ هان**)[2]، كما لم يكن هناك سوى القليل من النساء غير الأوروبيات اللواتي قمن بدور الوساطة (مثل «**محبوبة**» خليلة **هرمان فون بوكلر موسكاو** الأثيرة)[3]؛ ذلك أن النساء لم يكنّ يُقبلن عموماً في عالم المستشرقين[4].

وخلاصة القول إنه لم يكن سهلاً أن يصبح المرء مستشرقاً في تلك الفترة، كما لم يكن سهلاً الاستمرار في هذا المسار، ونذكر في هذا الشأن ـ على سبيل المثال ـ حالة **يوستيس أولسهاوزن**[5] الذي لم يعثر في جامعة برلين أثناء بحثه عن أستاذ يعلمه سنة 1819 سوى على شخص واحد، اسمه **بيرنشتاين** (G.H. Bernstein)، الذي كان المختص الوحيد في الدراسات السامية؛ وحتى هذا الأستاذ رفض إلقاء محاضراته على طالب واحد؛ ثم جرّب **أولسهاوزن** حظه مع أستاذ آخر مختص في الدراسات الفارسية القديمة، وهو **فريدريش ڤلكن**[6]؛ بَيْدَ أنّ هذا الأخير كان منشغلًا في عمله على رأس مكتبة الجامعة، وأخيراً وافق **ج. إدلر** (J.I. Idler) على المساعدة في تكوين هذا المستشرق المرتقب (كان **إدلر** قد درس على يد والده القس الملم باللغة العبرية). وبحسب ما ورد في رثاء **أولسهاوزن** فإن هذا المستشرق كان رجلاً عصامياً كوَّن نفسه بنفسه. ومن حسن حظ **أولسهاوزن** أنه التقى في

1 ـ Ida Laura Pfeiffer (1797-1854) مستكشفة نمساوية رحلت كثيراً، وألفت عدداً من الكتب التي نالت حظوة شعبية، وترجمت في حينها إلى سبع لغات. ستكون موضوعاً لقسم في الفصل التالي. (المترجم)

2 ـ Ida Countess von Hahn-Hahn (1805-1880) كاتبة ألمانية تنتمي لأُسرةٍ أرستقراطيةٍ. (المترجم)

3 ـ Hermann von Pückler Muskau (1785-1871).
نبيل ألماني اشتهر برحلاته إلى أوروبا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا. وقد دون رحلاته ونشرها تحت اسم مستعار، وقد ثمنت مؤلفاته على نطاق واسع. مما يروى عنه أنه وقع في غرام فتاة إثيوبية كانت معروضة للبيع في سوق النخاسة في القاهرة حيث اشتراها وأطلق عليها اسم محبوبة (المترجم).

4 ـ انظر فيما يخص محبوبة: Eckart Klessmann, Fürst Pückler und Machbbuba (Berlin, 1998)

5 ـ Justus Olshausen (1800-1882) مستشرق ألماني له إسهامات في الدراسات السامية والفارسية.

6 ـ Friedrich Wilken (1777-1840) مؤرخ ومستشرق ألماني.

باريس **بألكسندر فون هومبولت**، الذي خلَّف لديه انطباعاً حسناً؛ فهومبولت هذا كان إجرائياً وعملياً في تطوير كفاءات **أولسهاوزن** وتهيئته ليمتهن حرفة الاستشراق، على غرار ما فعله مع الكثير من المستشرقين الآخرين. إثر ذلك، عُيِّن **أولسهاوزن** أستاذاً محاضراً في جامعة **كيل**[1] قبل أن يتم رسالة الدكتوراه؛ ونشر أول مؤلف له سنة 1826، تحت عنوان: «تحريرات العهد القديم»[2]؛ وهو عبارة عن محاولة لتخليص الكتب المقدسة من الأدران والشوائب (Schlacken) التي لحقتها وغطت عليها على مر القرون. ولعل أعظم الطموحات التي راودت **أولسهاوزن** كانت متمثلة ـ بحسب ما ورد في رثائه ـ «في إقرار جوهر العهد القديم العبراني على أساس نص خالص وثابت على صيغة واحدة»، ثم القيام بعد ذلك على إقرار علاقاته اللسانية، وهي الغاية الأصلية لـ[التحريرات]، والتي ظلّت كذلك إلى حين مماته[3]. وعلى غرار الكثير من نظرائه المستشرقين، فقد اختار **أولسهاوزن** الزواج من وسط المستشرقين؛ فزوجته الأولى تنتمي لأُسرة **يوهان ميخائيليس** (حفيدة شقيق ميخائيليس)، وزوجته الثانية هي **ماري ميخائيليس** حفيدة الأستاذ بجامعة **غوتنغن**.

**استمر أولسهاوزن يعمل بسلاسة من دون عوائق على الرغم من قلة الطلبة والزملاء الذين يمكن أن يناقش معهم انشغاله بالدراسات الفارسية والبابلية التي كان ساعياً في تطويرها.**

استمر **أولسهاوزن** يعمل بسلاسة من دون عوائق على الرغم من قلة الطلبة والزملاء الذين يمكن أن يناقش معهم انشغاله بالدراسات الفارسية والبابلية التي كان ساعياً في تطويرها. وقد استمر على هذا النهج السلس إلى أن ارتكب خطأً سياسياً، حيث فُصل من عمله بسبب حماسته الزائدة لثورة 1848 الليبرالية. إلا أنه انتخب عضواً ممثلاً في المجمع الدستوري

1 ـ Kiel تقع جامعة كييل في مدينة كييل شمال ألمانيا، وقد تأسست سنة 1665.

2 ـ العنوان الأصلي للكتاب باللغة الألمانية: Emendationenzum Alten Testament

3 ـ Schrader, “Gedächtnisrede auf Justus Olshausen,” in Abhandlungen der Königlichen Akademie der Wissenschaften zu Berlin 1883 (Berlin, 1884), pp. 1-21, quotation p. 9.

لهولشتاين، وبعد انتخابه أعاد أوسمته إلى الحكومة الدانماركية. وعندما انتهت الثورة فقد منصبه الأكاديمي في الجامعة، غير أن **ألكسندر فون هومبولت** ساعده ثانيةً في الحصول على منصب في المكتبة، ثم سعى في تقلده منصب مستشار لدى وزارة الثقافة البروسية. وعلى نحو ما هو مألوف في السن التي بلغها **أولسهاوزن**؛ فقد دأب ردحاً من الزمن على الكتابة في التاريخ القديم للشعوب السامية والهندو ـ آرية، مبتعداً تدريجياً عن دراسات العهد القديم. أما مخططه النموذجي عن القيام بدراسات واسعة النطاق فقد كان يؤجّله إلى حين الانتهاء التام من الأعمال اللسانية الأساسية التي يعتقد بأنها المهمة الأولى الملقاة على عاتق الدارس الحقيقي. وبحسب ما كتبه **إيبرهارد شرادر** ـ المختص في الدراسات الأشورية والمعجب **بأولسهاوزن ـ سنة** 1883: «فقد ظلَّ حتى الأسابيع الأخيرة التي اشتد فيها عليه مرض الموت يشغل نفسه بدراساتٍ تشي بتحوله إلى دراسة اللغة الفهلوية»[1]. ونعتقد بأن ما ذكر كافٍ لرسم صورة لما كان عليه المستشرق الألماني في منتصف القرن الثامن عشر.

ظلَّ جل الأكاديميين المستشرقين حتى مطلع القرن التاسع عشر ـ على غرار **أولسهاوزن** ـ يتكونون في مجال اللاهوت، ويتقلدون مناصبهم العلمية في كليات اللاهوت، حتى وإن كانت علاقاتهم برجال الدين المحافظين والمسؤولين عن الكنائس متوترة في أغلب الأحوال. غير أن بعضهم حاول الحصول على منصب في كليات الفلسفة؛ رغبة في تحرير النفس من تدريس الراغبين في أن يصبحوا كهاناً وقساوسة أو مفسرين للعهد القديم، وأيضاً تخليص النفس من رقابة الكنيسة وتدخلها. ومع ذلك فقد كانت هناك أسباب وجيهة تدعو المستشرقين للبقاء في مجال اللاهوت. ذلك أن مجال اللاهوت كان يُعدُّ في مطلع القرن موضوعاً علمياً وبقي معتبراً كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث احتشد بأساتذة كاريزماتيين ابتداءً من الرومانسي **أوغست نياندر** ذي النزعة

1 ـ المصدر السابق، ص15.

التَّقَوية، وانتهاءً بالتاريخاني البروتســتانتي **فرديناند كريستيان بور**. مع الإشارة إلى أن نسبة الطلبة المنخرطين في كليات اللاهوت قد ظلت إلى غاية 1830 في حدود نســبة 38,5 في المائة مقارنةً بعدد طلبة الجامعات الألمانية[1]. وعلى الرغم من التراجع المستمر لهذه النسبة خلال السبعين ســنة التالية ـ لســبب يرجع في جانب منه إلى تناقص أعداد القساوسة والكهان ـ فإن علم اللاهوت ظل يمثل قوة ثقافية كبرى تُثمَّن عالياً، وظل مجــالاً يحظى بالاحتــرام من بيــن الحقــول العلمية حتى غايــة 1914[2].

أما بالنسبة للمستشرقين؛ فقد كان علم اللاهوت أرضية مناسبة للتكوين؛ بينما كانت الجماعة المنتمية له الأكثر ملاءمة للمستشرقين. ذلك أن جل هؤلاء بقوا متمسّكين بإيمانهــم، حيث كانوا يتأرجحــون ذهاباً وإياباً بيــن العمــل الأكاديمــي والعمــل الدينــي الإكليريكــي، وبيــن العمل في مجال الفلســفة واللاهــوت. فمثــلا تكــوَّن أوغســت **ديلمان** (1823 ـ 1894) ليصبح عالم لاهوت على غرار والده، غير أنه فضَّل في مرحلة ما الدراســات الفيلولوجية النقدية الإثيوبية على تأويل الكتب المقدســة. فبينما كان يُدرِّس في كلية اللاهوت بجامعة **توبنغن** اســتُدعي لتدريس اللغات الســامية واللغة السنســكريتية في كلية الفلسفة بجامعة كيل، ثم عاد فأنهى حياته العلمية في كلية اللاهوت بجامعة برلين[3].

**ظلَّ جل الأكاديميين المستشرقين حتى مطلع القرن التاسع عشر ـ على غرار أولسهاوزن ـ يتكونون في مجال اللاهوت، ويتقلدون مناصبهم العلمية في كليات اللاهوت.**

1 ـ John Edward Toews, Hegelianism: The Path toward Dialectical Humanism, 1805-1841 (New York, 1980), p.213.

2 ـ انظر فيما يخص أهميــة علم اللاهــوت ودوره الثقافي في نهاية القرن التاســع عشــر: Friedrich Wilhelm Graf, “Rettung der Persönlichkeit,” in Kultur und Kulturwissenschaften um 1900, ed. Rüdiger von Bruch, Friedrich Wilhelm Graf, and Gangolf Hübinger (Stuttgart, 1989), pp.103-31.

3 ـ Littmann, “August Dillmann, 1823-1894” [1940], in idem, Ein Jahrhundert Orientalistik: Lebensbilder aus der Feder von Enno Littmann und Verzeichnis seiner Schriften (Wiesbaden, 1955), pp.1-4.

ويجدر أن نشير هنا إلى أن العلماء والدارسين غالباً ما تخوفوا من إصدار تعليقات أو ملاحظات حول القضايا السياسة والدينية المعاصرة لهم. إذ كانوا يرون في التعالي عن الجدل الدائر حول الأحداث الآنية طريقاً أسلم لهم من مساندة هذا الطرف أو ذاك. بَيْدَ أنّ المستشرقين الألمان في منتصف القرن التاسع عشر أبدوا نفوراً قوياً من استثمار الوقت والجهد في دراسة آسيا المعاصرة. ففي الحقبة الواقعة بين سنتي 1820 و1880 كانت اللغات الشرقية الحديثة لا تُدرَّس إلا فيما ندر، ولا تحظى سوى باحترام ضئيل. أما أولئك الذين اكتسبوا احترام زملائهم فقد كانوا مختصين في الشرق القديم، وبخاصة في الشرق الأدنى القديم. مع الإشارة إلى أن القليل منهم هم من جرى توظيفهم من قبل وزارة الخارجية، وقلة قليلة منهم هم من استطاعوا تعبيد طريقهم بأنفسهم مثل يوهان **غوتفريد ڤيتزشتاين** (1815 ـ 1905)[1]. ذلك أن **فيتزشتاين** هذا كان قد عُيِّن قنصلاً ممثلاً لدولة بروسيا في دمشق من دون راتب، مما حمله على كتابة مقالات كان ينشرها في الصحف باسم مستعار، ودفعه إلى الانخراط في تجارة مربحة يبيع فيها المخطوطات العربية للجامعات الألمانية حتى يزيد من دخله. غير أنه استقال من منصبه سنة 1861، إثر المذبحة التي أودت بحياة ما ينوف على ستة آلاف مسيحي في المدينة السورية خلال السنة السابقة. وقد استمر بعد ذلك في نشر المقالات ومارس التدريس لعدة سنوات في جامعة برلين بصفة محاضر خارجي غير رسمي. وفي سنة 1870 جرى إرساله إلى تونس قصد مساعدة الأهالي في الثورة على الحكم الفرنسي[2]، على أساس إلهاء

1 ـ Johann Gottfried Wetzstein.

2 ـ تجب الإشارة إلى أن تونس لم تكن في السنة الواردة في النص (1870) واقعة تحت الحكم المباشر الفرنسي، حيث إن الحماية الفرنسية لم تفرض على تونس إلا سنة 1881. وربما قصد المرجع الذي اعتمدته المؤلفة الإشارة إلى إثارة القلاقل في حدود تونس مع الجزائر التي كانت خاضعة للحكم الفرنسي. وهو ما حدث بالفعل، حيث إن القلاقل على الحدود واعتداء القبائل التونسية على الأراضي الفرنسية في الجزائر هي التي اتخذتها الحكومة الفرنسية ذريعةً لاحتلال تونس (المترجم).

القوات الفرنسية وإبعادها عن الجبهة البروسية ـ الفرنسية[1]. وفي الواقع، فإنّ مساره المهني كان لامعاً، غير أن الكثير من الدارسين ـ ممن عاصروه في منتصف القرن التاسع عشر ـ كانوا يفضلون الهيبة العلمية على العمل الحكومي. وعلى أي حال فإن هذا الصنف من العمل كان في مجمله بيد الطبقة الأرستقراطية، إضافة إلى انغماس هؤلاء الدارسين في صنف من الوضعانية التاريخانية. فالنسبة لدارسين ـ أمثال **فرانز بوب** و**كريستيان لاسن** و**هاينريش إيفالد** و**كارل لاخمان** ـ فإن سياسة بلاد المشرق هي من اختصاص وزارة الخارجية وجمعيات التبشير ورجال الأعمال الذين يتعاملون مع الشرق. أما المستشرقون فلهم قضايا مختلفة تتعلق بالتاريخ أو اللاهوت التي عليهم التعامل معها.

**إنّ العلماء والدارسين غالباً ما تخوفوا من إصدار تعليقات أو ملاحظات حول القضايا السياسة والدينية المعاصرة لهم؛ إذ كانوا يرون في التعالي عن الجدل الدائر حول الأحداث الآنية طريقاً أسلم لهم من مساندة هذا الطرف أو ذاك.**

ومن البدهي أن يكون التعامل مع القضايا غير الخلافية التي تهم التاريخ الثقافي والسياسي القديم أكثر يسراً من التعامل مع الكتب المقدسة، ووفقاً لذلك فإن المستشرقين قد اتجهوا في هذه الفترة ـ على غرار نظرائهم الكلاسيكيين ـ إلى التركيز حصرياً على الماضي القديم وعلى دراسة التاريخ العلماني[2]. إذ أضحى الانفلات من قبضة السلطات الإكليريكية ـ التي كانت لها اليد العليا في التعيينات في كليات اللاهوت ـ هو الهدف الأكبر للمستشرقين الأقل أرثوذكسية. وفي الواقع، إن حركة في هذا الاتجاه أضحت ملموسة منذ أواخر القرن الثامن عشر، غير أن وتيرتها تسارعت بعد ذلك، خاصة بعد سنة 1820. ففي سنة 1809 أسس المستشرق النمساوي

1 ـ Ingeborg Huhn, Der Orientalist Johann Gottfried Wetzstein als preußischer Konsul in Damaskus (1849-1861) (Berlin, 1989), pp. 1-7, 53-6.

2 ـ كان عمل لاخمان على العهد القديم مثيراً للخلاف. أما أعماله عن الكلاسيكيات والألمانية القديمة فقد جلبت له شهرة واسعة.

(والماسوني) **جوزيف فون هامر ـ بورغشتال** مجلة تحت عنوان: «كنوز الشرق»[1] تناولت موضوعات ضمت الفلسفة والشعر والتاريخ والفلك والرحلة الأدبية، بينما استثنت اللاهوت. غير أن هذه المجلة توقفت عن الصدور حين غادر راعيها الأرستقراطي مدينة **ڤيينا** ليستقر في بولندا ويدير أعماله منها[2]. وحين عزمت جماعة من المستشرقين المرموقين على تأسيس مجلة علمية في العقد الرابع من القرن التاسع عشر آلت إلى تقليد نموذج **هامر ـ بورغشتال** (حتى وإن كان أفراد من هذه الجماعة قد نددوا في وقت سابق بطابع الهواية لمجلة «كنوز الشرق»). وهكذا تأسست «مجلة الجمعية الاستشراقية الألمانية عام 1847»[3] والتي أقصت بشكل واضح اللاهوت، حيث كانت تنشر مقالات في الفيلولوجيا المحضة، حتى وإن كان أعضاء الجمعية القائمة عليها قد تلقوا تكوينهم في علم اللاهوت، وقضوا جل حياتهم العملية في نقد كتب التوراة[4].

كانت المهمة ذات الأولوية في عمل الدارسين ـ ممن تعلّموا ليكونوا إنسيين مسيحيين ـ هي إنجاز الترجمات التي يقومون بها على الوجه الصحيح. ففي منتصف القرن التاسع عشر كان الدارسون المفتتنون بنماذج **لاخمان** و**نيبور** في البحث العلمي يطغون على غيرهم من ذوي التكوين الفلسفي؛ بسبب أن اللغة هي الوسيلة لوضع جينيالوجيات صحيحة وقابلة للتدقيق، وليس علم وظائف الأعضاء أو علم الأحياء هو ما يمكنه ذلك. أما المصنوعات اليدوية والفنية (باستثناء القطع النقدية) فلم تكن معتبرة في حد ذاتها شهاداتٍ موثوقاً فيها خاصة أن المجموعات المتوافرة منها، كانت

---

1 ـ Fundgruben des Orients.

2 ـ Hannes D. Galter, “Fundgruben des Orients: Die Anfänge der Orientforschung in Österreich,” in Joseph von Hammer-Purgstall: Grenzgänger zwischen Orient und Okzident, ed. Hannes D. Galter and Siegfied Hass (Graz, 2008), p.99.

3 ـ Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft

4 ـ Carl Brockelmann, “Die morgenländischen Studien in Deutschland,” in ZDMG 76, Heft 1 (1922): 10-11.

انظر فيما يخص المجلات السابقة عليها: Freise, Entwicklung der orientalischen Zeitschriften, pp.62-82.

ـ كما هو معلوم ـ مجموعات فردية (جمعها أفـراد أو في ملك أفراد) وغير تامة، في حين ظلت التقنيات المستعملة في تحديد تواريخ الأشياء الصغيرة محط خلاف. وقد ادعــى **أدولف أيرمان** (Adolf Erman) ـ وهو يســتحضر التجارب التي قام بها في متحف برلين خلال عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع عشر ـ أن فريقه تعلم بسرعة كيفية تحديد تواريخ القطع والأشــياء المهمة: «أما الأشــياء الصغيــرة ـ مثل الجواهــر والتعاويذ وما شــابهها ـ فكانت تطرح علينا صعوبات جمة؛ لأنه في ذلك الوقت لم يكن أحد يعرف شيئاً عنها. لقد قمنا بما استطعنا القيام به، واعتقدنا أن القطع ذات التقنية الضعيفة والسيئة تنتمي عموماً إلى عصور الانحطــاط»[1]، ولهــذا فقد ظلّــت اللغة ـ بالنســبة لمعظم الدارسين ـ هي «أعظم واقع حدث فــي عصور ما قبل التاريخ» حســب تعبير **كريســتيان بونســين**[2]. وهي المفتاح لفهم أي حضارة وإدراك كل الحضارات.

**كانت المهمة ذات الأولوية في عمل الدارسين ـ ممن تعلّموا ليكونوا إنسيين مسيحيين ـ هي إنجاز الترجمات التي يقومون بها على الوجه الصحيح.**

لم يكن أمراً مفاجئاً حينئذ أنّ جُلَّ الطاقات المســخرة في البحــث العلمي في تلــك الفترة كانت تصرف عملياً في محاولات لتنقية المعاجم والفهارس المعجمية وكتب النحو المتوافرة. وهو أمر لم يكن يسيراً أو سهل المنال؛ فحســب ما كتبه **ريمون شقاب** بأسلوب رشيق: «كان الرائد في هذا المجال كمن يشــق طريقه في الغابات والخمائل، عليــه أن يتوقف عند كل خطوة ليخترع فأســاً جديدة[3]؛ ذلك أن سذاجة جيل الرومانسيين التي بلغت درجتها المثلى في الحماس المبالغ حين اعتقدوا أن هوميروس ينتمي لشعب الكلت (السلت)، قد اندثرت، وتركت مكانها لأعمالٍ ذات نزعة شكية مثيرة.

1 ـ Adolf Erman, Mein Werden und meine Wirkung: Erinnerungen eines alten Berliner Gelehrten (Leipzig, 1929), pp.195-6.

2 ـ C. J. Bunsen, Ägyptens Stelle in die Weltgeschichte 1: 20.

3 ـ Schwab, Oriental Renaissance, p.90.

**فتيودور مومسن** عندما قام بأول تنقيب له في الكتابات المنقوشة (النقيشات)[1] رفض 1003 كتابة منقوشة من نقوش نابولي[2]. وقد جرى تطبيق نزعة الشك ذاتها على فك رموز الكتابة الهيروغليفية التي كانت أول اختراق قام به **شامبليون** سنة 1822، الذي عُدّ عمله نقطة تحول في معرفة تاريخ مصر القديمة، وعلى إثره بدأ البحث العلمي في المصريات. وواقع الأمر أن **شامبليون** قضى زهاء عامين آخرين في التنقيح العلمي لاكتشافه حتى يقنع **كارل أوتفريد مولر**[3] الشهير في الدراسات الكلاسيكية. غير أن العديد من الدارسين الألمان ظلوا ـ طيلة سنوات عدة ـ يرفضون التصديق بما توصل إليه **شامبليون**. ومن هؤلاء **يوليوس كلابروت**[4] الذي رفض رفضاً باتاً فك رموز الهيروغليفية الذي ادعاه شامبليون، وكذلك عالم المصريات **غوستاف سيفارت**[5]. وقد كان هذا الأخير قد عين أستاذاً مشاركاً في جامعة لايبزغ سنة 1830 ليقوم بتدريس الأركيولوجيا. غير أن هذا الأستاذ المسيحي المتشبث بعقيدته ـ كان يدأب كل مساء على إلقاء خطب الوعظ بالكنيسة الملحقة بالجامعة. فقد شرح **جورج إيبرس**[6] ـ في المرثية التي قالها في حقه متعاطفاً معه ـ أسباب مقاومة **غوستاف سيفارت** لطريقة شامبليون، وصنف الأخطاء التي كان من الصعب على القادم الجديد للميدان تفاديها:

---

1 ـ نرى مفيداً أن نشير إلى أن ترجمة inscriptions ـ التي يقصد بها الكتابات المحفورة على الحجر في المعالم التاريخية ـ غير متفق على مقابل واحد لها في اللغة العربية. غير أن الشائع هو مفرد النقش والجمع نقائش ونقوش (المترجم).

2 ـ Acton, “German Schools of History,” p.21.

3 ـ Karl Otfried Müller (1798–1840) باحث ألماني علّامة في الدراسات الكلاسيكية، ومختص في الميثولوجيا الإغريقية، وكان معجباً على الخصوص بحضارة إسبارطة.

4 ـ Julius Heinrich Klaporth (1783–1835) مستشرق وإثنوغرافي ألماني مختص في اللسانيات، أسهم في دراسات آسيا الشرقية.

5 ـ Gustav Seyffarth (1776–1885) عالم ألماني مختص في المصريات، هاجر إلى الولايات المتحدة وأضحى حاملاً لجنسيتها.

6 ـ Georg Ebers (1837–1898) عالم مصريات ألماني. اشتهر باكتشاف برديات مصرية حول الطب.

**بكونه الممثل الوحيد لهذا المجال في ألمانيا، الذي لم ينصحه أحد ولم يتلق التنبيه من أحد، والذي استفزه عديد من أناس لا يعرفون عنه شيئا سوى أنه عامل مجد في عمله، وليس باستطاعتهم مجاراته في عالم المصريات، فحملوه على الدفاع عن نفسه؛ وتعلم سريعاً كيف يبالغ في تقدير قيمة ما يتوصل إليه. لكن هل هناك باحث من الدارسين الشباب الذي لم يخامره الشعور أثناء أول استكشاف يقوم به بنفسه، لأول مرة أن ما أنجزه سيهزّ العالم؟**[1]

**إن سيفارت لم يقبل أبداً بالتصحيحات المتبصّرة التي قام بها غريمه في الميدان، وهكذا اختار الهجرة إلى الولايات المتحدة بسبب عدم رضاه عن قصور الدارسين الألمان في تقدير أعماله حق قدرها.**

وللأسف فإن **سيفارت** لم يقبل أبداً بالتصحيحات المتبصّرة التي قام بها غريمه في الميدان. وهكذا اختار الهجرة إلى الولايات المتحدة بسبب عدم رضاه عن قصور الدارسين الألمان في تقدير أعماله حق قدرها، وهناك تقلد منصباً أكاديمياً في **كوليج كونكورديا** بمدينة **سان لويس**. وعلى الرغم من عمره الطويل الممتد 89 سنة (توفي سنة 1885) ـ الذي عايش فيه ترجمة العديد من الوثائق والمخطوطات؛ من قبيل «كتاب الموتى»، ونشر الكثير من المعاجم وكتب النحو، وسمع فيه عن الحفريات واسعة النطاق التي تُجرى في مصر ـ فإنه لم يسافر أبداً إلى الشرق، ولم يسلّم بأي حال بأن شامبليون كان على حق[2].

والأكيد أن عدم الرضى الذي انتاب **سيفارت** كان ناجماً عن النجاح الباهر الذي حققه طالب في جامعة لايبزغ: **كارل ريتشارد ليبسيوس**[3] الذي يعدّ النموذج الأمثل للمستشرق الناجح. فعلى النقيض من **كارل**

1 ـ Georg Ebers, "Gustav Seyffarth, sein Leben und seiner Versuch einer gerechten Würdigung seiner Thätigkeit auf dem Gebiete der Ägyptologie," in ZDMG 41 (1887): 207.

2 ـ المصدر السابق، صفحات 16 ـ 20.

3 ـ Karl Richard Lepsius (1810–1884) عالم مصريات بروسي ودارس لسانيات، يعدّ من المؤسسين الأول لـلأركيولوجيا الحديثة.

**ريتر** أو **فرانز بوب** لم يعش **كارل ليبسيوس** طفولة رومانسية حتى يتنصل منها ليلتحق بعلم المصريات من دون أن يكـون له اهتمام ظاهر بالوحي القديم أو الأسرار الكهنوتية. والواقع أن أحد المعلقين على مساره العلمي ذهب بعيداً ليلقبـه بِـ«التكنوقراط» الذي يتعامل مـع المصريات كما لو كانت صنفاً من صفقة تجارية يجب إنجازها مـن دون أن تراوده عاطفة نحوها[1]؛ فقد كانت رسالة الدكتوراه التي أعدّها مبنية على تحليل نصوص لاتينية إيتروسـكية، ومن ثَمَّ يمكـن القول: إنه خطا خطواته في مسـار الدراسـات الكلاسـيكية. لكنّ هذا المسـار قـد تغير حيـن تعرف على **كريستيان بونسـن** الذي كان وثيق الصلة بعدد مـن الجهات؛ ومع ذلك فقد كان الاثنان يختلفان مزاجاً وسلوكاً؛ **فبونسن** كان يسعى بوضوح وراء وسـيلة تثبت حقيقة الإنجيل، ويبحث عن مكان مشـترك يجمع الحاميين والسـاميين وسلالة يافث. أما **ليبسـيوس** فكان أكثر تردداً وأقل جموحاً حول إقامة دين عظيم أو ادعاءات إيسـتوغرافية. ورغـم اختلافهما هذا، فقد كانا يكمل أحدهما الآخر؛ **فليبسيوس** قدم يد المساعدة **لبونسن** في الدراسات المصرية، بينما عمل **بونسن** على حصول **ليبسيوس** على رعاية ملك بروسـيا **فريدريش فلهلم الخامس**. وهكذا حصل **ليبسـيوس** على مبالـغ مالية مهمة من الملك سـنة 1842 لتمويل بعثة إلـى مصر، والتي كانت أنجـح بعثة قام بهـا الألمان إلى مطلـع القرن العشـرين، وكانت نتائجها الأكثر تفصيلاً ودقة في أركيولوجيا الشرق. وحين عاد **ليبسيوس** ألقى سلسـلة محاضرات حظيت بنجاح شـعبي. أما الرسـائل التي كتبها خلال أسـفاره فقد نشـرت عدة مـرات، وتُرجمت إلى لغـات أخرى. مع الإشـارة أيضـاً إلى أن قسـم المصريـات في متحـف برلين قـد امتلأ بالمصنوعات اليدوية والتحف التي اقتناها ليبسيوس أثناء بعثته؛ إذ كانت تلك المقتنيات سـبباً في النجاح الذي حققه المتحف عند افتتاحه سـنة 1850. أما الملك **فريدريش فلهلم الخامس** فقد عيّنه أسـتاذاً فوق العادة

1 - Dietrich Wildung, “Prioritäten Ägyptologie, 1884-1984,” in Karl Richard Lepsius (1810-1884), p.213.

في جامعة برلين سنة 1842، رغم إصرار الجامعة على عدم احتياجها إلى أستاذ في علم المصريات[1].

كان **ليبسيوس** في الواقع هو المؤسس لعلم المصريات في الأراضي الجرمانية؛ غير أن توجهاته لم تكن «عصرية»؛ فقد لجأ ـ أثناء تحايله في الحصول على تمويل بعثته إلى مصر ـ إلى التأكيد على «مدى الأهمية الاستثنائية التي تكتسيها التمثلات السيئة لكرونولوجية مصر والتاريخ على فهم [التاريخ والكرونولوجيا] التوراتية»، الأمر الذي عجز فريق نابوليون عن القيام به[2]. وعلى أي حال فقد كان المتحف الذي أنشأه مصمماً على تصور عصري، والواقع ـ بحسب ما ورد في رسالة بعث بها **ليبسيوس** لمدير المتحف **فون أولفر** سنة 1845 ـ أن معرضه كان متفرداً «لا توجد أُمة أخرى يمكنها أن تحدد تاريخ كل معلمة على حدة بدقة متناهية، وتكون متأكدة تماماً مما تقدمه»[3]. والواقع يشهد على أن **ليبسيوس** كان محقاً في دعواه؛ إذ عُدَّ عمله الأكثر تطوراً وتقدماً في زمنه. لكن إن نحن رأيناه من منظور استعادي سيتضح لنا أن التقنيات التي استعملها في تحديد التواريخ كانت غير متطورة (حيث استعمل بكل بساطة الخراطيش الملكية، وربطها بلائحة الملوك التي وضعها مانيتون)[4]، فهذه التقنيات هي التي قد حددت قيمة الأشياء

**حصل ليبسيوس على مبالغ مالية مهمة من الملك فريدريش فلهلم الخامس سنة 1842 لتمويل بعثة إلى مصر، والتي كانت أنجح بعثة قام بها الألمان إلى مطلع القرن العشرين.**

1 ـ M. Reiner Lepsius, "Richard Lepsius und seine Familie," pp.34-40; Suzanne Marchand, Down from Olympus, pp.47-9, 62-5.

2 ـ Lepsius, "Denkschrift über die auf Befehl seiner Majestät Königs Friedrich Wilhelm IV zu unternehmende wissenschaftliche Reise nach Ägypten," May 24, 1842, in B-AWA, Kap. VIII. II-VIII, 260.

3 ـ Lepsius to Olfers July 11, 1845, in Lepsius, Letters from Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai, trans. Leonora and Joanna B. Horner (London, 1853), p.324.

4 ـ Lepsius, Letters from Egypt, 134.

المعروضة في المتحف وتواريخها. هذا إضافة إلى أن رغبة ليبسيوس في التوفيق بين التاريخ والأصالة وبين إرضاء الحس الجمالي قد حملته في غالب الأمر على ترميم التحف والمصنوعات وإتمام التالف منه. وهو أمر عدّه الجيل التالي من علماء الآثار هرطقة[1]، وبسبب إصراره على الاعتقاد في حقيقة الكتب المقدسة؛ فإنه لم يصادق على الاستقلال التام للغات السامية والهندو ـ أوروبية أو بوجود حضارة تعود للعصر الحجري في مصر[2]، وقد عُدَّ واحد من أعمال ليبسيوس الأولى (رسائل إلى الأستاذ روسوليني حول الحروف الهيروغليفية)[3] عملًا متمماً لمنظومة **شامبليون**. وهكذا ظل **فريدريش كروزر** ـ إلى غاية سنة 1848 ـ متشككاً في كثير من التفاصيل[4]. بل تطلب الأمر زمناً أطول حتى يتمكن الدارسون الألمان من قراءة الكتابة الهيروغليفية بسهولة وتغدو المصادر المصرية محورية في دارساتهم، خاصة منذ أن أصبحت المصادر التوراتية والكلاسيكية معروفة لديهم جيداً والوصول إليها أكثر يسراً. فقد عبّر **دو لاغارد** عن رأيه ـ في رسالة كتبها سنة 1867 ـ بقوله: «بقدر ما يتعلق الأمر بالمسائل التي تتعدى الأسماء والتواريخ؛ فإن الهيروغليفية هي مجرد هراء لا أقل ولا أكثر[5].

لم تكن الدراسات المصرية مجالاً يتفرد لوحده بالتعقيد والخلاف؛ فقد كتب **توماس هايد** بحثاً علمياً عن تاريخ الفرس القديم والديانة الفارسية القديمة سنة 1700، غير أن الحجج التي اعتمدها كان قد استقاها من كُتَّاب إغريق وعرب وفرس متأخرين، وذلك وفقاً لما أشار إليه **مارتن هوغ** في ثمانينات القرن التاسع عشر. وواقع الأمر أن **توماس هايد** امتلك بعضاً من

1 - Erman, Mein Werden, pp. 192-7.

2 - Richard Lepsius, “Über die Annahme eines sogenannten praechistorischen Steinalters in Ägypten,” in Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde 8, (1870): 89-97, 113-21; Erika Endesfelder, “Der Beitrag von Richard Lepsius zur Erforschung der altägyptischen Geschichte,” in Karl Richard Lepsius (1810-1884), pp. 244-6.

3 - العنوان الأصلي باللغة الفرنسية: Lettres à Mr. Le Professeur H. Rossellini sur l’alphabet hiéroglyphique

4 - Creuser, Aus dem Leben, pp. 153-4, 103-4.

5 - Paul de Lagarde to Heinrich Rückert, June 18, 1867 in Lagarde, Erinnerungen über Rückert, p. 31.

مخطوطات زند أفستا؛ لكنه كان عاجزاً عن قراءتها. فعلى هذا الأساس ارتأى **هوغ** أن أنكويتل، يستحق التقدير؛ حيث يرجع له الفضل في إعطاء الأوروبيين فكرة محدودة عن محتوى ذلك العمل؛ بَيْدَ أنّ عمله الفيلولوجي الرديء قد أدى إلى «أخطاء وأغلاط فادحة، أثارت تصورات خاطئة، لم تقتصر على النقاط الفرعية؛ بل شملت أيضاً قضايا ذات أهمية كبرى لدى المهتمين بالديانة الزرادشتية.» مع الإشارة إلى أن **وليام جونز** كان قد قرر في وقت سابق أن ترجمة أنكويتل مفبركة على أساس أن محتواها يتناقض مع المنطق السليم؛ فالمفترض أن الفرس القدامى كانوا أكثر حكمة من ذلك[1]. ولعل أول عمل نقدي خص النصوص الفارسية القديمة هو ذاك الذي قام به **إيميل بيرنوف**[2] في مؤلف يحمل عنوان «تعليق على ياسنا»[3] الذي ظهر ما بين 1833 و1835؛ غير أن عالم اللسانيات الكبير هذا توفي بعد سنوات قليلة فقط. وعلى أي حال، فقد كان كتابه غالي الثمن بالنسبة للطلبة الألمان، ومن ثم، فقد وهن هذا التخصص المعرفي وتراجع طيلة عقود. وكذلك سار تطور الدراسات الأشورية ببطء. فعلى الرغم من الخطوات الأولى التي اتخذت منذ 1802 ـ والتي ثبت أنها كانت في الاتجاه الصحيح ـ فإن المترجمين الفرنسيين والبريطانيين لم يتفقوا على كيفية قراءة المخطوطات الأكادية إلا سنة 1857. في حين تطلب الأمر زمناً أطول حتى يقتنع الدارسون الألمان، بل وإلى غاية عقد السبعينات من القرن التاسع عشر ظل الكثير من المستشرقين الاحترافيين يعتقدون أن الدراسات

**لم تكن الدراسات المصرية مجالاً يتفرد لوحده بالتعقيد والخلاف؛ فقد كتب توماس هايد بحثاً علمياً عن تاريخ الفرس القديم والديانة الفارسية القديمة سنة 1700.**

---

1 ـ Haug, Essays on the Sacred Languages, Writings and Religion of the Parsis (London, 1878), pp. 16-19, quotation p. 19.

2 ـ Emile-Louis Burnouf (1821–1907) مستشرق فرنسي أثر في تطور النزعة الآرية. ومما اشتهر به وضعه لأول قاموس للغتين الفرنسية والسنسكريتية. والكتاب المشار إليه في النص يحمل عنوان: "Commentary on Yasna".

3 ـ Yasna المبدأ الأول في عبادة زرادشت. (المترجم)

الأشورية غير دقيقة، ومن ثم فقد أهملوا هذا التخصّص الفرعي للاستشراق (انظر الفصل الخامس).

بغضّ النظر عن دقائق اللغة؛ فقد كانت هناك مشاكل إضافية تتعلّق باستخلاص الوقائع والأحداث أو المعلومات «الحَدَثية» من الأدبيات الشرقية والنصوص الدينية ومقارنتها مع النصوص التوراتية والكلاسيكية التي هي الأكثر كثافة والمعروفة على نحو أفضل. كما أن تنافس المستشرقين من أجل الرفع من قيمة نصوص الأمم التي يشتغلون عليها وتفضيلها على نصوص الأُمم الأخرى؛ قد أدخلهم في حلقة مفرغة من الاستنكار والشجب والجدل حول موثوقية النصوص الجديدة وإمكانية الاعتماد على النصوص الشرقية غير التقليدية. ففي سنة 1826 اشتكى **يوليوس كلابروت** من أن ممارسات الهندوس ودوغمائياتهم «تبدو وقد استهلكت واستنفدت كل قدراتهم الفكرية، على نحوٍ لا يمكن معه إنقاذ أي شيء من قدرتهم العقلية، أو جعلهم يتفتحون على أي شيء يتعلّق بأحداث الجنس البشري». ثم يتابع **كلابروت** في الصفحات التالية: «من الضروري الاعتراف بأن الأمل في استخلاص معلومات إضافية عن التاريخ القديم للبشرية من سرديات الآسيويين ـ تزيد على تلك التي نجدها في أسفار موسى أو نصوص البابليين والمصريين والإغريق ـ هو أمل مغرق في الغطرسة»[1]. وبحسب ما كتبه الملحق بالبعثة التجارية البروسية [في اليابان] المكلّف بتأريخ الأحداث سنة 1860: «تكمن أسباب انعدام الوضوح [في تفسيرات الأوروبيين للثقافة اليابانية] في معرفتنا الناقصة باللغة والنصوص اليابانية وجهلنا بالأُسس الدينية والأخلاقية [الأجنبية عنا] التي تنبني عليها ثقافة اليابان، وأيضاً في صعوبة التحكم والسيطرة التي تكمن في انغلاق اليابانيين»[2]. وعلى الرغم من وجود بارقة أمل ما من وجهة النظر السائدة سنة 1860 في إمكانية أن تنفتح اليابان ثقافياً وحتى تجارياً؛ فإن التقرير المشار إليه قد أكد على أن عداء اليابانيين للأوروبيين يجعل ذلك الانفتاح غير وارد. أما كتابة تاريخ العلوم في الهند أو حتى تاريخ الهند بناء على المصادر الهندية؛ فقد جادل **تيودور بونفي** في شأن هذا التاريخ بأنه غير ممكن

1 - Klaproth, Mémoires relatifs à l’Asie, pp. 396, 411.

2 - Einleitendes zum Verständnis der Japanischen Zustände, in Die Preußische Expedition nach Ost-Asian, nach amtlichen Quellen, vol. 1 (Berlin, 1864: reprint London 2001), p. 3.

بسبب «انعدام الاحترام لهذا الموضوع»، وبسهولة لا يمكن للمؤرخين أن يخبرونا كيف ومتى تشْرَع تلك التقاليد في التغير[1]. وبأي حال، فلم يكن جيل الوضعيين يعتقد أنه كشف كل أسرار الشرق، رغم أن الكثير من هذا الجيل كان يأمل في أن يعمل الزمن والدراسة الجادة على رفع الحجب عن تلك الأسرار.

ومما زاد من تعقيد الأمور وجعلها أكثر صعوبة وضع أقدم المصادر موضع الشك والريبة على نحو متزايد. ويصدق هذا على الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية، خاصة بالنسبة للبروتستانت؛ فقد سبق أن رأينا أن **أدولف إيرمان** قد ساوره الشك الذي أحاط به مصداقية هيرودوت. وكذلك وضعت تقارير المبشرين وسرديات الرحلات الأولى تحت مجهر التدقيق؛ فمثلاً نصح **بيتر فون بوهلين** باتخاذ كامل الاحتياط والحذر حين استعمال تقارير المبشرين؛ رغم أن بعض التقارير القديمة ـ مثل تلك التي حررها **أبراهام روجر** ـ كانت قد أعدت بعناية فائقة؛ بينما تميزت تقارير أخرى باحتقار وازدراء لديانة الهنود وثقافتهم. بل حتى تلك التقارير الموثوق بها ـ والتي عُنيت بالكتابة عن اللسانيات المحلية والأنماط الثقافية ـ قيل: إنه لا يمكن أن تؤخذ بوصفها انعكاساً للثقافة الهندية في كليتها[2]. وفي سياق قريب انتقد تقريرٌ صادرٌ عن البعثة البروسية تعاملَ المبشرين اليسوعيين المغرض مع تاريخ اليابان «الذي يبتعد كثيراً عن الحقيقة في سبيل تمجيد الكنيسة والإعلاء من نظامها...»[3]. وكيفما كان الأمر فلم يخامر كل الناس الشعور نفسه؛ بل ما شعروا بأن عليهم التغلب على عائق المعرفة التقليدية. فحسب ما جادل به **يورغن أوسترهامل** ـ فيما يخص المعلومات التي أوردها **كارل ريتر** ـ فإن هذا الجغرافي اعتمد بشكل كبير على الدراسات التي أعدها المبشرون في القرن السابع عشر

**بغضِّ النظر عن دقائق اللغة؛ فقد كانت هناك مشاكل إضافية تتعلّق باستخلاص الوقائع والأحداث أو المعلومات «الحَدَثية» من الأدبيات الشرقية والنصوص الدينية ومقارنتها مع النصوص التوراتية والكلاسيكية.**

1 ـ Theodor Benfey, Geschichte der Sprachwissenschaft und Philologie in Deutschland, pp.401-2.

2 ـ Peter von Bohlen, Das alte Indien, pp.77-80.

3 ـ Geographische Lage und Beschaffenheit: Mythologie, Geschichte, in Die Preussische Expedition nach Ost-Asien, p.17, n. 15.

(التي اعتمدت على المعلومات الصينية)، وظل يأخذ سـرد **ماركو بولو** على محمل الجـد. وكذلــك اسـتغل **فرديناند فون رختهوفــن** ـ تلميـذ **كارل ريتر** ـ تقارير اليسـوعيين لصالحه، وعلى حسب ما حاج به **أوســترهامل**؛ فإن تأييد الدارسين الألمان للمعرفة القديمة سـاعدهم في تجاوز الأدبيــات الازدرائية التي كتبها في وقتٍ متأخرٍ تجــار تنقصهم المعرفة[1]. وفي الوقت الذي أكـد فيه **يوجين بيرنوف وكريستيان لارســن** في مقالهما عن بالي[2] على علو النتائج الممنهجة التي خلصا إليها، فإنهمــا أقرا ببنــاء عملهما على تقارير المبشــرين الكاثوليــك في القرن الســابع عشــر، وعلى الحدس الرائع لهؤلاء وقوائم المفردات التي جمعوها[3]. ومع ذلك يبقــى التيار العــام الذي حدده **أرنالـــدو موميغليانو** حول الإســطوغرافية القديمــة قائماً في هذه الفترة. فخطوة إثر خطوة بدأت الدراســات الاستشــراقية تشكل ذاتها حصرياً حول النماذج الأوروبية المعاصرة ذات السلطة حول «العلم»[4].

أما الذي أسـهم في تشـكيل قواعد جديدة للدراســات على نحــو تدريجي، وإحــداث قطيعة مع الســلطات والنصــوص التقليديــة؛ فــكان ـ دون ريب ـ تلك المكانــة الاقتصادية والسياســية الجديــدة التي حققتهــا أوروبا علــى الصعيد العالمي. ذلك أن القــوة الإمبريالية مكّنت الأوروبيين من الســفر وجمع التحف والقطع الأثرية وغيرها والتفاعل مع المثقفين من الأهالي على نطاق غير مسبوق. فالثروة التي جنتها أوروبا جعلت ممكناً إرســالُ العديد من الدارســين والرحالة وجامعــي التحــف، ومكّنــت أيضــاً من نقــل العديــد مــن النصوص الشــرقية والمصنوعات اليدوية والنباتات والحيوات إلى أوروبا قصد إجراء أبحاث إضافية عليها. ففي سنة 1855 لاحظ **جول موهل** وجود عدد كبير من الدارسين الأوروبيين يشــتغلون في المكتبات الشــرقية أو يجمعــون المخطوطــات والمصنوعات بغاية اســتغلالها في أوروبا «في وقت من الأوقات حين كان مركز الحضارة في بغداد،

1 ـ Osterhammel, “Forschungsreise und Kolonialprogramm: Ferdinand von Richthofen und die Erschließung Chinas im 19. Jahrhundert,” in Archivfür Kulturgeschichte 69, Heft 1 (1987): 166, 182.

2 ـ Pali.

3 ـ Eugene Burnouf and Christian Larsen, Essai sur le Pali, ou Langue sacrée de la presqu’ile au-delà du Gange (Paris, 1826), p.8.

4 ـ Arnaldo Momigliano, “The Place of Ancient Historiography in Modern Historiography,” in idem, Settimo Contributoalladegli Studi Classici e del Mondo Antico (Rome, 1984), pp.28-33.

كان الخلفاء يرسلون البعثات إلى أوروبا قصد شراء المخطوطات الإغريقية التي كان الغرب البربري يهملها، أما الآن؛ فإن أوروبا ترسل مبعوثي المكتبات لإنقاذ ما تبقى من أدبيات العرب القديمة التي سعى إليها الخلفاء أنفسهم وجمعوها»[1]. فهذه الأشياء التي اقتنيت وجمعت بطرق متغطرسة ـ وقيل عنها بقول بلاغي إنها «إنقاذ الحضارة من الهمجية» ـ هي التي بنيت عليها كل الدراسات الأوروبية الاستشراقية الحديثة، ومن بنيها الاستشراق الألماني.

**إنّ الذي أسهم في تشكيل قواعد جديدة للدراسات على نحو تدريجي، وإحداث قطيعة مع السلطات والنصوص التقليدية؛ كانت تلك المكانة الاقتصادية والسياسية الجديدة التي حققتها أوروبا على الصعيد العالمي**

غير أن كل هذا لا يفسر سبب إقبال بعض الأفراد على الدراسات الشرقية وتكريس أنفسهم للعمل فيها، خاصة في تلك الأوقات التي لم يكن مجالها يتيح سوى القليل من مناصب العمل، ومتابعة العمل فيه لا تحظى سوى بقليل من الهيبة والتقدير. فإذا ما نحن ألقينا نظرة عامة وسريعة على المسارات المهنية لهؤلاء الأفراد، سيبدو لنا أن ما أعطى زخماً إضافياً لهؤلاء الدارسين في متابعة هذا المسار ـ الذي غالباً ما لفه الغموض وصعوبة الوصول إلى المصادر ـ هي تلك الثقة في أن عالم المعرفة سيثمن قيمة المعلومات الجديدة ولو بعد تردد وفق ما فعله في السابق. ولم يكن، بأي حال من الأحوال ـ كل العاملين في الميدان لجمع القطع الأثرية والمخطوطات ـ الذين ذكرهم موهل، من الألمان، ومع ذلك فقد كان الألمان حريصين بسبب الضآلة النسبية للمواد الشرقية في الأراضي الجرمانية؛ وهكذا لم يكن هناك عالم أكاديمي آخر يرغب في ملء الهوة أكثر مما كان العالم الأكاديمي الألماني. ولعل هذا ما أدى **بإدوارد شولتزتو ڤان** إلى أن يُقتل على يد الأكراد وهو يحاول نسخ منقوشات مسمارية. وهو أيضاً ما دفع **إسحاق شميت** (إضافة إلى حافز التبشير) إلى القيام بتلك الأبحاث المتقدة بالعاطفة والحماسة في أراضي التبت وكالموك ومنغوليا، والتي أصيب على إثرها بالعمى سنة 1842[2].

1 ـ Jules Mohl, “Année 1854-1855,” in idem, Rapports 2: 13.

2 ـ انظر فيما يخص سيرة شميت: Tuska Benes, In Babel’s Shadow: Language, Philosophy, and the Nation in Nineteenth- Century Germany, (Detroit, 2008), p.92.

هناك البعض ممن بنى شهرته على اكتشاف مواد وأشياء جديدة مثلما كان حال **قسطنطين تيشيندورف**[1]؛ ففي سنة 1844 ـ وكان يعمل آنذاك محاضراً زائراً (غير رسمي) في جامعة لايبزغ ـ عثر على أربع وأربعين صفحة من العهد القديم المكتوب باللغة الإغريقية (السبعينية) في كومة أوراق متعفنة كانت مخزونة في كنيسة القديسة كاترين بجبل سيناء. إثر ذلك حمل مكتشفه إلى لايبزغ حيث نشره سنة 1846 تحت عنوان: «مدوَّنة فريديريكو أوغوستانيوس[2]»، على اسم راعيه ملك ساكسونيا. وفي سنة 1854 نشر أول طبعة نقدية موسعة للإنجيل اللاتيني تحت عنوان: "The Vulgate Amiatinus" (الذي اشتغل على إعداده في مدينة فلورانس). وقد أكسب ذلك العالم المفسر هيبة إضافية، فحين سافر في ثالث رحلة له إلى جبل سيناء سنة 1859 (التي تمت بتمويل القيصر ألكسندر الثاني) عُرض عليه نص أضحى يعرف لاحقاً بمخطوط سيناء "The Codex Siniaticus"؛ وهو عبارة عن مخطوط إغريقي يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي، يتضمن أقساماً من العهدين القديم والجديد. وإلى غاية هذه النقطة من مسار الأحداث لا يعرف فيما إذا كان **تيشيندورف** قد سرق المخطوط أم استعاره أم أنه حصل على موافقة الرهبان ليقدموه هدية إلى القيصر. وكيفما كان الأمر فقد انتهى المخطوط في «المكتبة الإمبراطورية البروسية» التي صارت تحتوي على أعظم النصوص قيمة فيما يخص دراسة الإنجيل. وقد حصل **تيشيندورف** على كرسي أكاديمي في جامعة لايبزغ، وتمتع بامتياز إضافة لقب **فون** إلى اسمه الذي منحه إياه القيصر ألكسندر. وقد قام **تيشيندورف** ـ بناءً على ما اكتشفه ـ بنشر طبعة نقدية للعهد الجديد وعدد من الكتب دوَّن فيها رحلاته[3]، وتشبه حكاية **تيشيندورف** بالنسبة لمواطنيه الألمان حكاية **هوراسيو ألجر**[4] لدى الأمريكيين المعاصرين؛ إذ ظلَّ ممكناً في ذلك العالم الاجتماعي الساكن أن يتسلق المرء إلى القمة ليس عن طريق جمع المال والثروة؛ ولكن عبر ما يكتشفه ومن خلال قراءة النصوص الجديدة.

خَبَرَ أولئك الذين تمكنوا من شق طريقهم في عالم الاستشراق منافع هذا

1 ـ Constantine Tischendorf (1815-1874) عالم مختص في التوراة، اشتهر باكتشافه أقدم مخطوطة للإنجيل.

2 ـ Codex Frederico Augustanus.

3 ـ Matthew Black and Robert Davison, Constantine Tischendorf and the Greek New Testament (Glasgow, 1981), pp.8-14. تجدر الإشارة إلى أن الروس باعوا مخطوط سيناء إلى المتحف البريطاني مقابل مائة ألف جنيه (100.000). المصدر نفسه، ص 14.

4 ـ Horatio Alger.

العالم الصغير شـديد الترابط، وخَبَرُوا أيضاً تكاليفه ومشـقاته. فمن حسـن حظ الطالب النرويجي **كريسـتيان لاسن** أن مرشده وأسـتاذه **فريدريش شليغل** قد ثمَّن عمله حول الملحمة الشعرية السنسكريتية «**رامايانا**»، مما مكنه من الحصول على ما يكفي من المال إلى حين حصوله على منحة دراسية من وزارة الثقافة البروسية، ثم على منصب أكاديمي فـي جامعة بون. غير أن هذه المسـاعدة كانت لها عواقب على **كريستيان لاسـن**؛ فعلى الرغم من المسـاعدة التي تلقاها من **شـليغل** في إعداد أطروحته حول بالي؛ فإنه تحمل أيضاً تأنيب شـليغل وتقريعه حـول نفقاته المالية، حيث بلغ به الأمر أن طلب من المشـرف على رسـالة الدكتوراه التفتيش على ماليته ونفقاته[1]. كما كان المستشرقون مرتبطين ومتعلقين بالدارسين الأجانب وبالمسؤولين في المسـتعمرات للوصول إلى المصادر التي يكتنفها الغموض. أما المشكل الذي واجه **لاسن** فقد تمثل في تعاملـه مع الـدارس الفرنسـي **انطـوان ليونارد دو شيزي**[2]، الذي اشتهر بغيرته وعدم استعداده للعمل مع الباحثيـن الألمـان، وحرصه على الاحتفـاظ بمصادر المكتبة الأساسـية فـي منزلـه حتى يقلـل من طرق الوصـول إليها، وهـذا يعني زيـادة الصعوبـات على الدارسـين[3]. وهكذا أضحى الكثير من المشاريع غير ممكن أو مستحيل التحقيق بسبب الوصول إلى المصادر. ففي أوائل عقد الخمسينات من القرن التاسع عشـر اضطر الباحث **پول دو لاغارد** إلى تعليق مخطط يرمي إلى نشـر طبعة من العهد الجديد مؤسسـة على المصادر الشـرقية، حين منعه الباحث البريطاني **وليام كورتون**[4] من الوصول إلى مخطوطات سورية كان يحتفظ بها[5]. وهذا

**خَبَرَ أولئك الذين تمكنوا من شق طريقهم في عالم الاستشراق منافع هذا العالم الصغير شديد الترابط، وخَبَرُوا أيضاً تكاليفه ومشقاته.**

1 ـ Briefwechsel A. W. von Schlegel: Christian lassen, ed. W. Kirfel (Bonn, 1914), pp.181-99.

2 ـ Antoine Leonard de Chezy (1773-1832) مستشـرق فرنسي، اشـتهر بترجمته لمجنون ليلى عن الفارسية (المترجم).

3 ـ Lassen to A. W. Schlegel, July 2, 1825, in Briefwechsel A. W. von Schlegel / Christian Lassen, p.138.

4 ـ Willian Cureton (1808-1864) مستشرق إنجليزي اشتهر بمعرفته باللغة السريانية وترجمة نصوص منها (المترجم).

5 ـ Alfred Rahlfs, Paul de Lagardes wissenschaftliches Lebenswerk im Rahmen einer Geschichte seines Lebens Dargestellt (Berlin, 1928), p.42.

الباحث ذاته ـ الذي اعتراه اليأس وهو يسعى إلى الحصول على مخطوطات محفوظة بباريس ـ قد طلب من وزير الثقافة البروسي ـ بعد مرور أسبوع على انتصار بروسيا على فرنسا في معركة سيدان ـ أن يجبر الفرنسيين على إعارة الباحث **دو لاغارد** المخطوطة لفترة زمنية غير محدودة؟[1]. وهذا إضافة إلى التكلفة المرتفعة التي كانت عاملاً في هذا الباب؛ إذ كانت كتب النحو الأساسية الأولى غالية الثمن وغير متوافرة للباحثين الموجودين في الأماكن النائية والمعزولة، مثلما كان حال الباحث **بيتر فون بوهلين** المقيم في كونيغسبرغ. وهكذا استجاب **فريدريش ريكرت** للطلب الذي تلقاه من بوهلين، بإرسال نسخ من معاجم وكتب نسخها بيده؛ مثل معجم اللغة السنسكريتية الضخم الذي وضعه **هوراس هايمان ويلسون**[2].

يبدو أن الوضعية التاريخية ـ من بعض الأوجه ـ قد أثّرت عملياً لغير صالح المستشرقين مقارنة مع فعلها لصالح دارسي الكلاسيكيات؛ فالمستشرقون ذوو الاختصاص الفيلولوجي ـ الذين نادراً ما سُمح لهم بالتخصص الدقيق في لغة واحدة ـ لم يكن بوسعهم الادعاء بأنهم وصلوا إلى درجة الكمال في تأويل وفهم كثير من نصوص «الآخرين»، وذلك لسببٍ واحدٍ، وهو أن نصوصاً جديدةً غير معروفة وقطعاً أثرية كانت تكتشف تقريباً كل يوم. ومن ثم، فلم يكن بإمكان مؤرخ وضعي يحترم نفسه أن يفترض في نفسه القدرة على كتابة تاريخ شامل عن الأدب الهندي أو الفن الأرمني. وهكذا ظل الكثير من المستشرقين أقرب إلى «ماكينات لسانية» منهم إلى باحثين توليفيين على غرار نموذج **تيودور مومسن** أو **أوغست بفيزماير**[3]، الذي ترجم زهاء ست آلاف وخمسمائة صفحة من نصوص صينية ويابانية، كان يأخذها اعتباطاً من رفوف مكتبة هابسبورغ الإمبراطورية. ذلك أن بفيزماير هذا ـ وهو ابن صاحب نزل، الذي تكون في علوم الطب وتعلم بنفسه اللغتين الصينية واليابانية ولغات أخرى ـ كان قد قام بترجمة مقتطفات من الشعر الروسي وشعر الأينو. وبفضل نشره لكتاب وضعه عن النحو التركي سنة 1848 فقد حظي بوظيفة في أكاديمية الاستشراق، حيث رتَّب لتمويل المطبعة الإمبراطورية حتى تقتني سبائك الرموز الصينية واليابانية[4].

1 - Sieg, Deutschland Prophet, p.103.

2 - Heinrich Rückert, “Friedrich Rückert als Gelehrter”, p.220.

3 - August Pfizmaier (1808–1887) دارس ألماني مختص في الدراسات الصينية واليابانية.

4 - R. L. Walker, “August Pfizmaier’s Translation from the Chinese,” in Journal of American Oriental Society 69, (1949), 216 -17.

وإذا كان مقبولاً على نطاق واسع أن الطريق إلى التقدم العلمي يمر عبر البراعة اللسانية الفائقة؛ فإن هذا الأمر كان نادراً بالنسبة لغير المختصين في الدراسات العبرانية. **فـڤلهلم شوت**[1] ـ الذي حصل سنة 1838 على منصب لتدريس اللغتين الصينية والتتارية ولغات شرق آسيا ـ كان قد تعلّم اللغة الصينية ـ بحسب رواية زميل له ـ من شخصين من العموم ينتميان إلى قريتين تقعان تحت إدارة مدينة كانتون، أحدهما كان يعمل طباخاً؛ وقد فرض هذان الشخصان أنفسهما على المكتشف بغية الحصول على المال وإظهار أنفسهما مثلما تعرض الحيوانات البرية في أوروبا[2]. وبدهي أن أياً من أصناف الهواية وانعدام الاحترافية لم يكن ليبهر أساتذة الجامعات الألمانية؛ فعلى الرغم من الروح المقاولتية والعديد من المنشورات؛ فإن **شوت** و**بفيزماير** لم يتمكنا من كسب احترام معاصريهما، فهما الآن شخصيتان طواهما النسيان لا يذكران في الدراسات الاستشراقية.

على الرغم من كل هذه المشاق، فقد نمت حرفة الاستشراق؛ فحين تأسست مجلة «الجمعية الاستشراقية الألمانية» (DMG) سنة 1845، كان عدد أعضائها أربعة وخمسين عضواً جلهم من أساتذة الجامعات والدبلوماسيين، أو من مسؤولين في الدولة وأساتذة الثانويات وقساوسة ذوي رتب عالية؛ كما كان من بينهم بائعو كتب مرموقون. وفي سنة 1880 قدمت الجمعية عضوها السادس والسبعين وتسعمائة (976)، في حين فتحت الجمعية مجال الانخراط لحاخامات اليهود والمحاضرين غير الرسميين في الجامعات والمدرسين من غير أساتذة الثانويات، وكذا القساوسة العاديين وأرباب المكتبات والعاملين في صفوف الجيش، وأيضاً فتحت أبوابها للمدرسين الخصوصيين وآخرين من المقيمين فيما وراء البحار[3]. ومع ذلك يجب أن ننظر بحذرٍ وتمعنٍ في تلك القوى التي أسهمت في نمو الاستشراق الألماني، عوض الافتراض أّن النمو جاء نتيجة التوسع الكولونيالي الجرماني وطموحاته، أو نتيجة النمو الطبيعي لتخصص معرفي بسبب أن الحالات الطارئة وخصوصيات الأفراد من شأنها هي أيضاً أن تصنع التاريخ.

1 ـ Wilhelm Schott (1802-1889) مستشرق ألماني مختص في الدراسات الصينية.

2 ـ Klaproth quoted in Benes, In Babel’s Shadow, pp.93-4.

3 ـ انظر: Die Deutsche morgenländische Gesellschaft, 1845 ـ 1895, in EinÜberblick (Leipzig, 1895), pp.42-85.